اختيار المنهج بداية الطريق

الشيخ نعيم قاسم

الكلمات المفتاحيّة: نعيم قاسم؛ الإنسان؛ الدنيا؛ الآخرة؛ العقل؛ العمل؛ الهوى.

كيف يمكن أن ينجح الإنسان في مكابدته ومعاناته في هذه الدنيا؟ بما أنّ المشقّة حاصلة، والاختبارات كثيرة وشاملة لحياة الإنسان كلّها، والبلاءات متنوّعة وغير محسوبة في أغلب الأحيان، وقدرة الإنسان محدودة، فهو لا يستطيع اختيار الأصلح من دون توجيه وإرشاد، لذا لا بدّ من تحديد المنهج الأفضل الذي يهدي إلى الاستقامة والصلاح، ويستثمر المعاناة والآلام لمصلحة الفوز والنجاح، ويلبّي متطلّبات الإنسان الدنيويّة، ويواكب عبوره إلى الآخرة بزاد مريح.

لا يمكن النجاح في مواجهة هوى النفس ورغباتها بطريقة عشواء، ولا تسع حياتنا القصيرة إجراء التجارب البشريّة عليها لاختيار الأصلح، بل لا حاجة لها مع وجود المنهج الربّانيّ الكامل، الذي يوفّر لنا القواعد الصالحة، التي تختصر التجارب وتعفينا من الكثير من السلبيّات.

فلنحسم، ماذا نريد؟

هل نريد اللحاق بالملذّات والشهوات التي تمضي سريعًا، وتبقى آثارها، وتترتّب عليها مسؤوليّاتها؟ أم نريد تنظيم حياتنا بما يحقّق لنا الاستقرار النفسيّ والمعنويّ، ويعطينا الملذّات المحلّلة بحدودها وضوابطها، لنبقى متوازنين بين الدنيا والآخرة؟

هل نريد إطلاق العنان لجسدنا؟ أم أنّنا ملتفتون إلى إنسانيّتنا التي تتطلّب مراعاة التوازن بين الجسد والروح؟

ألم تعطنا التجارب البشريّة درسًا كافيًا في ضياع أولئك الّذين عاشوا الجسد وحده فأصابهم الخواء الروحيّ، وها هم اليوم بين باحث عن العودة إلى الدين، أو يائس من الحياة يتصرّف بطريقة عشواء، أو يتّجه إلى الانتحار؟

أتت رسالات وحي السماء لتحدّد لنا المنهج الإلهيّ، مختتمة تعاليمها بمحمّد صلّى الله وعليه وآله ورسالته الكاملة الشاملة التامّة وهي الإسلام، مقابل كلّ ما عداها من مناهج أرضيّة بشريّة ناقصة وعاجزة، تشدّها الرغبات والضعف، والتي يمكن جمعها تحت عنوان واحد هو الهوى.

حدّد منهجك، تعرف طريقك، وتتّضح أمامك صورة البداية والنهاية. فالمنهج الإلهيّ هو الحلّ الأمثل مقابل الأهواء البشريّة، وقد دعانا **القرآن الكريم** إلى الاستقامة وفق ما أمر الله تعالى، وأن نعدل في حياتنا، سواء آمن الناس أم لم يؤمنوا، فلكلّ عمله، ولكلّ حسابه، قال تعالى: {فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}[1].

إنّ اختيار المنهج الإلهيّ يتلازم مع الأمور التالية:

1- أن يكون الإنسان في حزب الله، أي في المسار الذي يرتضيه الله تعالى بكلّ مفاعيله وعلى رأسها الولاية لله ولرسوله وللّذين آمنوا، إذ لا يمكن المحافظة على الاستقامة من دون النصرة لله تعالى، والاقتداء بالرسول صلّى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام، قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (55) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}[2]. وقد نزلت هاتان الآيتان بحقّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، عندما كان يصلّي في المسجد، فأتاه فقير يطلب المساعدة أثناء ركوعه، فمدّ الأمير عليه السلام يده وفيها الخاتم، مشيرًا إلى الفقير ليأخذه، فكانت الآية التي تتحدّث عنه {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ}[3]. وفي الآية التالية تأكيد بأنّ الاقتداء بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وأئمّة الهدى عليهم السلام وعلى رأسهم أمير المؤمنين عليه السلام، يؤدّي إلى الغلبة بإذن الله تعالى.

2- أن يكون جزءًا من جماعة المؤمنين، فالجماعة تحمي الفرد وتحصّنه وتساعده على نفسه، وتشكّل البيئة النظيفة للنفس الإنسانيّة، {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا}[4]. هذا الارتباط متلازم مع الصبر معهم، وفي كلّ الأوقات، فلا تتركهم لحظة واحدة إلى الحياة الدنيا وزينتها، مهما بلغت هذه الزينة، ومهما بلغ أتباع

---

[1] سورة **الشورى**، الآية 15.

[2] سورة **المائدة**، الآيتان 55و 56.

[3] سورة **المائدة**، الآية 55.

[4] سورة **الكهف**، الآية 28.

الهوى، فهؤلاء يصدّون عن سبيل الله تعالى: {فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى}[5].

3- أن يكون ثواب الآخرة حاضرًا أثناء عمله، فتهون عليه التضحيات عندما يقارن بين اللذّة العابرة والجنّة الخالدة، ويكون واضحًا لديه بأنّه يعمل للأصلح، ويصبر للأفضل، ويجاهد للثمن الأعلى وللخلود، فالآخرة حافز فعّال في ضبط الهوى، قال تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (40) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى}[6]. وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: "جاهد نفسك، واعمل للآخرة جهدك"[7]. وقال عليه السلام: "ولبئس المتجر أن ترى الدنيا لنفسك ثمنًا، وممّا لك عند الله عوضًا"[8]، وهل يستبدل العاقل ما عند الله بما في الدنيا؟ لقد خاب من آثر الحياة الدنيا على الآخرة، وأفلح من وضع الآخرة نصب عينَيه، وآثرها على الدنيا.

4- أن يحكم عقله مقابل هواه في أموره كلّها، فالعقل مرشد وهاد، بينما الهوى مضلّ ومفسد، قال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام: "العقل صاحب جيش الرحمن، والهوى قائد جيش السلطان، والنفس متجاذبة بينهما، فأيّما غلب كانت في حيّزه"[9]. فقضايانا تحتاج إلى حسم، وتعتمل في نفس الإنسان أفكار وقناعات ورغبات، فإذا ما اختار العقل وضع الأمور في نصابها، وإذا ما انجرفت نفسه نحو الهوى ضاعت بوصلة الطريق.

5- أن لا يكون هواه مقياسًا ومنهجًا، قال تعالى: {أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}[10]، حيث عبّرت الآية عن الإله بالهوى، لأنّ الضالّ قد حسم خياره بأن يعود إلى هواه في كلّ شيء. فالخلل في المنهج من بداية الاختيار، لا ينتج إلّا الفساد والانحراف والضلال في كلّ شيء، ولا قابليّة معه للهدى، وهذا ما يختلف عن الخلل الذي يحصل في اتّباع هوى النفس زلّة أو خطأ في

---

[5] سورة **طه**، الآية 16.

[6] سورة **النازعات**، الآيتان 40 و41.

[7] الريشهري، **ميزان الحكمة**، الجزء الأوّل، الصفحة 34.

[8] الإمام عليّ، **نهج البلاغة**، الخطبة 32، الصفحة 87.

[9] الليثي الواسطي، **عيون الحكم والمواعظ**، الصفحة 64.

[10] سورة **الجاثية**، الآية 23.

بعض الأحيان، فالزلّات يمكن التخلّص منها بالتوبة، وبوجود المنهج الرادع الذي يذكّرنا بالاستقامة، وبالعقل الذي يصوّب مسارنا، أمّا اتّخاذ الهوى إلهًا وموجّهًا، فهو السقوط المريع الذي تصعب النجاة منه.

6- أن لا يزيّن سوء عمله، فهذا من اتّباع الهوى، فليعترف بخطئه بينه وبين نفسه، وليعالج الثغرات التي وقع فيها، وليعلم بأنّ أزمات الإنسان من الزينة التي تخفي وتبرز المظاهر المخادعة، فزينة الحياة الدنيا من الشهوات والملذّات مغرية ومضلّلة، وتزيين العمل الفاسد بالبحث المضني عن محاسنه إخفاء للحقيقة، فلنبتعد عن الزينة لنتّجه إلى الحقائق، ما يسهّل علينا اتّخاذ القرارات، لأنّنا نكون على بيّنة من أمرنا، والفرق كبير بين من كان على بيّنة من أمره، ومن زيّن سوء عمله لمصلحة هواه، {أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ}[11].

7- أن يثق بهدي الله تعالى إلى سلوك منهجه القويم، وبنصره، فلا عطاء إلّا من الله تعالى، ولا مكافأة إلّا من عند الله تعالى، أمّا الآخرون من الشياطين وأتباعهم فلا يملكون نفعًا ولا ضرًّا، إنّما يملكون الوسوسة والخدع والوعود الخاوية. {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[12]، وهل يترك الإنسان البيّنة الواضحة الصريحة لمصلحة الهوى الملتبس الخدّاع؟ وهل يترك رحمة الله تعالى ليعيش الضياع والخسران؟ يسأل النبيّ صالح عليه السلام قومه عن النتيجة الخاسرة التي سيوصلونه إليها بدعوتهم المنحرفة ورفضهم لطاعة الله تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ}[13].

---

[11] سورة **محمّد**، الآية 14.

[12] سورة **الأنعام**، الآية 71.

[13] سورة **هود**، الآية 63.